القضايا النسائية فى الأدب العربى الحديث بمصر خلال القرن العشرين: دراسة تحليلية و نقدية

تلخيص

تقديم

علي رضا

تحت اشراف

البروفيسوره فرحانه صديقى

قسم اللغة العربية و آدابها

الجامعة الملية الإسلامية

نيو دلهى — ١١٠٠٢٥

٢٠٠٥ م

تحتل المرأة مكانة مرموقة في الأدب العربي منذ قديم الزمان و كان و لايزال لها نصيب أوفر في الأدب لانها تلعب دور الموحي للإبتكار و الابداع في التعبير عن الحب و الشعور و العواطف و لواعج الفؤاد و من أجل ذلك يتغنى الرجال بأناشيد الهيام منذ عهد إمرئ القيس إلى وقتنا الحاضر و يعزون كل أسباب الهناء و الشقاء .

و مما يلاحظ أنه برغم ما حاول الشرع الاسلامي في تحسين حالة المرأة ظلت منزلتها في الأدب دون منزلة الرجل و قد قام من النساء قديما من احرزن مكانة عالية في الحياة العمومية و الأدبية كزنوبيا ملكة تدمر و عائشة صديقة رضي اللّٰه عنها و سكينة بنت الحسين و السيدة زبيدة و ولادة بنت المستكفي وغيرهن و لكن مع هذا ظلت المرأة مكبلة بأغلال العادات و العرف و التقاليد و فشا فيهن الجهل و الجمود و الرجعية حتى انهن في بعض الأحيان حرمن من جميع حقوقها ا لأساسية التي اباحها الاسلام و هذه الأوضاع لم تكن فاشية في المجتمع الاسلامي فقط بل كانت متواجدة في المجتمع الأوربي أيضا و لم تكن هناك محاولة جدية في تحسين أحوالهن إلا في عهود متأخرة و في أواخر القرن الثامن عشر بدأت النهضة النسائية في أوربا بسبب الإصلاح الاجتماعي و بدأ علماء علم الاجتماع بوضع مقترحات لتحسين أحوالهن و قاموا ضد استغلالهن بسبب الجهل و الضعف و هكذا بدأت حركة نسائية في العالم.

أما المجتمع الإسلامي فكانت النساء فيه من أسوا الأحوال و كان الجهل و الجمود يخيم على هذا المجتمع و كانت المرأة تئن تحت أثقال القيود و الطقوس مع انها تعتبر نصف المجتمع البشري و كانت لا تتمتع بحقوقها في

حصول التعليم و المشاركة في تدبير الأمور و المعاملات العائلية و لم تكن للمرأة إلا الطاعة و الخدمة اليومية و الحمل و الولادة .

ادرك فريق من أوائل أعضاء البعثات العلمية للغرب عواقب المرأة المصرية منهم رفاعة الطهطاوى هو أول من ارتفع صوته بمصر من أجل تعليم المرأة و تحريرها و إنشاء المدارس من أجلها و ذلك عام ١٨٦٠م فنرى انه اتخذ طريق وسط في دعوته و حاول بربط بين مفاهيم الفكر الإسلامي و بين روح العصر و من قوله "كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم و ظرافتهم فعدم توقية النساء حقوقهن فيما ينبغي لهن الحرية فيه دليل على الطبيعة البربرية" و قال في موضع آخر " ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات و الصبيان معا لحسن المعاشرة و الإزدواج " يعني انه دعا الى تعليم المرأة و تحريرها في حدود الشريعة الإسلامية و حاول ان يتماشى مع العصر بدون تجاوز الحد فلم نجد في دعوته حدة مثلما نجد في دعوة قاسم أمين فانه ألف كتابيه المشهورين "تحرير المرأة" في ١٨٩٩م و " المرأة الجديدة" في ١٩٠١م اللذين اثارا ضجة كبيرة في العالم الإسلامي و عرض دعوته بأسلوب جميل رائع و استدلال عقلي بارع و كان جل اهتمامه في البحث في المسائل هي الأربعة (١) تعليم المرأة (٢) الطلاق (٣) تعدد الزواج (٤) الحجاب . نرى انه في بعض الأحيان تجاوز الحد و خالفه لكنه بقي متمسكا بالشرع الإسلامي بحيث يقوم باستدلال الآيات القرآنية فيما يتعلق بالحجاب و غيره فانه يقول في تمهيد كتابه " لو أن في الشريعة الاسلامية نصوصا تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه و لما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت

مضرة في ظاهر الأمر لان الأوامر الإلهية يجب الإذعان بها بدون بحث و مناقشة و لـكنا لا نجد نصا في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ..... و مـضـى يـقـول و لذلك لا نرى مانعا من البحث فيها بل نرى واجبا ان نلم بها و نبين حكم الشريعة في شأنها و حاجة الناس الى تعبيرها "فكان لهذه الدعوة دوى مـلأ الـعالم العربي خاصة و العالم الإسـلامـي عامة بالبحث و الجدل في حقوق الـمرأة و تدريجيا اتخذت هذه الدعوة شكل الحركة النسائية و انقسم الأدباء الى قسـمين (١) المتجددون فيهم محمود شلطوط ، قاسم أمين ، رشيد رضا، محمد عبـده وغيره. يقول محمد عبده "الواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرئاسة ان يـعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن و يجعل لهن في النفوس احتراما يـعيـن عـلـى الـقيام بحقوقهن " و كذلك نرى تلميذه رشيد رضا دافع عن حقوق المرأة مستنـدا من القرآن و السنة . (٢) المحافظون فيهم طلعت حرب انه اعتبر دعوة قـاسـم أمين مؤامرة غربية جديدة لتدمير هيكل المجتمع المصري و محمد كـامـل الفقي رئيس كلية اللغة العربية و الدراسات الإسـلامية بجامعة الأزهر فانه يرى ان المرأة أقل شأنا مـن الرجل جسميا و دماغيا فانها لا تستطيع مباراة الرجل لذلك جعل اللّه تبارك و تعالى الرجل قواما على المرأة فان بقائها في البيت أحسن مـن أن تشتـغل في المصنع و المعمل . أما عباس محمود العقاد فانه كتب "المرأة فـي الـقرآن" و "هذه الشجرة" و بحث فيها مكانة المرأة منذ ولادة آدم و حواء و حاول اثبات أن المرأة منذ قديم الزمان كانت عيالة على الرجال و انها لا تستطيع أن تتحمل صعوبات العمل خارج البيت.

و مـن جرّاء هذه الحركة الواسعة ظهر كثير من الكتب في حقوق المرأة و

من أهمها "المرأة فى الشرائع و التاريخ" لمحمد جميل بيهم و "كتاب المرأة فى المرآة" لمجدى الدين ناصيف و "رسالة فى نهضة المرأة المصرية و المرأة العربية" لعبد الفتاح عبادة و "أعلام النساء" لعمر رضا كحالة وغيرها التى تعتبر آثارا أدبية قيمة و أما من ناحية الرواية فان أول رواية فى الأدب العربى الحديث زينب لمحمد هيكل بحث فى حقوق المرأة و التقاليد التى تحول دون اختيار زوجها الذى تحبه و قد تبين كل هذا بأسلوب خلاب و رائع و من هذه الناحية نرى انه حاول بكل نجاح عرض مسائل المجتمع المعقدة .

و فى هذا المجال لم يتخلف الشعراء من الأدباء بل ساهموا فى دفاع حقوق المرأة المسلوبة و اعطاء مكانتها المناسبة و أيّدوا هذه الحركة بأشعارهم الجذابة لو أن لهذه الحركة صبغة خاصة لكل قطر لكن نرى أن شعراء مصر مالوا على الاعتدال و التحفظ فان حافظ إبراهيم يقول:

من لى بتربية النساء فانها فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة اذا اعددتها اعددت شعبا طيب الأعراق

و من المعلوم أن الآثار الأدبية سواء كانت فى اللغة العربية أو فى اللغات الأخرى لها علاقة وثيقة بالمرأة مباشرة أو غير مباشرة و لانبالغ حينما نقول إن الأدب بدون ذكر المرأة ناقص و تافه فاذا كان الأمر كذلك يصعب على الباحث المصمم بالبحث فى القضايا النسائية ما يأخذ و مايترك و لذلك اخترت القضايا المرتبطة بالمرأة مباشرة .

و حينما نعمق النظر فى دعوة تحرير المرأة بمصر نجد أن رفاعة رافع

الطهطاوى اعتدل فى مطالبته بتعليم المرأة و لم يتطرق إلى القضية الحساسة للغاية مثل الحجاب و غيره . و قام بتوضيح مساوى جهل المرأة . أما قاسم أمين فإنه أدّى خدمات جليلة فى هذا الصدد بلا مبالغة مشيرا إلى معاناة المرأة و استغلالها من قبل بعض الرجال المصريين و لهوهم بالقوانين الدينية مثل الطلاق و تشددهم فى معاملة الحجاب التقليدى و إصرارهم فى بقاء المرأة فى البيت . أوضح قاسم أمين حقوق المرأة فى ضوء القرآن و السنة بطريقة ظن بعض الأدباء و المفكرين بأن كتابه هذا لم يكن من انتاجه بل أن مساهمة الشيخ محمد عبده قد أسهم فى املاء هذا الكتاب مشيرين إلى أن مثل قاسم أمين محامى المهنة لا يستطيع أن يكتب مثل هذا الكتاب لكن حتى الآن لم يثبت هذا الإتهام . هذا يدل على تعمق مطالعته فى المسائل الدينية و جدارته فى البحث لكن مع الأسف إنه لم يحافظ على الإتزان و الإعتدال فى كتابه " المرأة الجديدة " و بالغ فى مدح المجتمع الأوربى المختلط و قدّر اختلاط المرأة فى جميع المجالات مع إنه اعترف باقراط الأوربيين فى معاملة المرأة و قال فيه أشياء لم ينزل اللّٰه بها من سلطن مثلا إنه يقول فى موضع أن الشعور بالحرية يزداد شيئاً فشيئاً فى المجتمع المصرى و أن الحجاب بدأ يخفف تدريجيا فى المجتمع حتى قد يتلاشى فى يوم من الأيام . يتعجب القارى أهو نفس الكاتب الذى تكلم فى الحجاب الشرعى فى ضوء القرآن و السنة فى " تحرير المرأة " أم كاتب آخر لا يعرف شرعية الحجاب فى الإسلام و يتكلم بتلاشيها من المجتمع ؟

و مما يلفت النظر أن مثل هذه الأفكار كانت كافية لاثارة الضجة و البلبلة و خاصة فى الظروف التي يسعى فيه المصريون تحرير بلادهم من القوة الإستعمارية . و نتيجة لذلك حدثت هناك ضجة كبيره و انقسم المجتمع المصرى بين مؤيد و معارض حتى أتهم قاسم أمين بأنه عميل غربى و يريد تنفيذ

مطامع الغرب . في ظلّ هذه الخصومة نرى شخصيته مسكينة لأن كلا الجماعتين استغلا دعوته فالمحافظون رفضوا دعوته بأنها مؤمراة غربية و لم يفكروا في اصلاح المساوئ التي أشار إليها قاسم أمين و أنصار المرأة وافقوا على دعوته لكن لم يتبعو ما دعا إليه بل اتبعوا الغرب و ألصقوه بدعوته و خطوا إلى أبعد مما دعا إليه قاسم أمين . حتى استنكرت زوجة قاسم أمين ما شاهدت من التجاوز في السفور و قالت لو أن قاسم أمين كان حيا يعارض مثل هذه الظاهرة . قد ذكرت كل هذا بالتفصيل عند ذكر حياة قاسم أمين .

على كل حال ، إن رؤية قاسم أمين وغيره من الأدباء و الكتاب و المفكرين المرأة المصرية المثالية لم تتحقق إلى حد يذكر و في غضون ربع قرن من الدعوة ظهرت المرأة المصرية في موضة بحيث لايمكن التمييز بينها و بين الأوربية و الأمريكية في الملابس و السلوك و ضربت بأحكام الدين عرض الحائط و نسيت مسئوليتها تجاه المجتمع المتدين .

و إلى جانب هذا ، حدثت هناك تحولات كبيرة في الأفكار و الآراء الخاصة بالمرأة و نالت المرأة حقوقها المسلوبة و تقللت معاملة الطلاق و تعدد الزوجات و وضع الحد عليها فمن هذه الناحية يمكن أن نقول أن رؤيتهم في الإصلاح تحققت و أصبحت مثالا حيا للبلدان الإسلامية الأخرى .

أما مساهمة المرأة في استيراد حقوقها فليست ما يستهان بها و على الرغم من حديثة العهد بالعلوم و المعرفة نجد إنها عرضت قضايا ها بطريقة جذابة و حققت أهدافها إلى حد كبير . في مقدمتهن ملك حفني ناصف الملقبة بـ"باحثة البادية " التي قدمت القضايا النسائية بكل جدية و اعتدال و اختارت طريق الوسط ببحث القضايا . لكن مع الأسف لم تحيا كثيرا أما هدى شعراوى فلا شك فيه إنها كانت زعيمة كبيرة و لعبت دورا مهما في توجيه الحركة النسائية و تأسيس